الثورة الثقافية

بقلم عبد الكريم غرب

أعتقد ان العالم حقا قد أصبح في حاجة الى ثورة ثقافية ، ذلك ان الثقافة لا تقل عن السياسة ونظم الحكم والنظم الاقتصادية اثرا في حياة الشعوب وفي سير العالم ، والمثقفون لا يقلون — أو هم على الاصح يفوقون — رجال السياسة والاقتصاد في التأثير على المجتمعات وفي توجيهها نحو الاسعد من مستقبلها أو نحو الاشقى .

ولذلك فالثقافة في حاجة الى عمل جديد لا يتسم بهدوء الفيلسوف ورزانة العالم وبطء المفكر وفردية الباحث وانطوائية الاديب ، ولكنه يتسم بالعمل الثوري ، ان لم تنظم فيه مظاهرات الاطفال وصيحات المراهقين واهانة الصغار للكبار ، فيجب أن ينظم فيه عمل جماعي لحفظ تراث الانسانية ولوضع أصول وقواعد ومواثيق — كمواثيق حقوق الانسان والاصول والقواعد التي أفضت اليها — تسير على هديها الثقافة فلا تكون أداة للتخريب ولا وسيلة للاستغلال والاستعباد والاستعمار ، ولا أداة من أدوات تضليل المجتمعات والشعوب ونصر القوي على الضعيف ، ولا طريقة لتهديد حياة الانسانية بوسيلة العلم الذي اصبح يحقق المعجزات في التخريب والتدمير .

الثقافة اذن يجب أن تكون ملتزمة مع الانسانية ، تعمل للسمو بالعلم والفكر ، كما تعمل للسمو بالخلق الانساني في معناه الاعم ، فلا تكون ثقافة بدون خلق لتنغمر في عالم السلبية الذي يفضي الى اليأس من الفكر والعلم بعد أن كانا أمل الانسانية ، ولا تكون ثقافة ضدا على الخلق لتنغمر في عالم الاجرام الذي يفضي الى اتهام الفكر والعلم بالاسهام في شقاء الانسانية وانحرافها .

وهذا الالتزام في نظري سبيله الوحيد هو الثورة المنفجرة ضد كل الانحرافات التي تحاول أن تسلك بالفنون والاداب والعلم والفلسفة سبيل الضلال ، او سبيل الاستغلال ضد الانسانية ، او سبيل التحطيم من اجل نصرة شخص أو مذهب أو اتجاه .

الثورات عادة لا تكون منظمة تنظيم البداية والنهاية أو الهدف ، ولا تكون محكمة الوسائل والاساليب ، اذ ان عنصر الفجاءة فيها جوهري لانها عادة مضادة لشيء قائم ، ولكنها تكون منظمة في العقول التي تنبت فيها ، وفي الافكار التي تختمر فيها ، وفي النفوس التي تطفح بها قبل أن تنفجر في شكل عمل جماعي ثائر . أما الثورة الثقافية التي نريدها فنرجو لها أن تكون منظمة لا نتيجة أحلام مهتزة أو مرعبة ، ولكن نتيجة دراسات ولقاءات وتنظيمات تخرج من الفكرة الى العمل عن طريق البحث والنظر والتنظيم .

معظم المفكرين الان — فيما أعتقد — يحلمون بالثوره الثقافية ، اذ كثيرون منهم يغارون على الانسانية ويدينون الحروب ويناهضون العدوان ويلتزمون مع شعوبهم او مع الانسانية ، ولذلك فعملهم هذا يمكن أن نعتبره مرحلة الحلم في الثورة التي ندعو لها ، مرحلة حلم جادة لانها لا تقتصر على الامال او على التفكير المجرد ، وانما بدأت تتعدى ذلك الى التكتل حول « بيان » ضد حرب الجزائر ، أو في « محكمة » لادانة المعتدين في الفيتنام ، أو حول مشروع لانقاذ التراث الانساني في النوبة التي يغرقها السد وفي فلورانسا التي أغرقتها السماء . ولكن هذه المرحلة الحالمة ما تزال في البداية أو هي في الحقيقة ما تزال أشبه بالعمل الخيري ، اذا كان للفكر فيه نصيب فانه لا يخرج عن استنكار الحرب والعدوان والدعوة الى انقاذ اثر .

لهذا فان تنظيم الثورة الثقافية يقتضي :

١ — الدعوة الى الفكرة على أوسع نطاق وبين المثقفين جميعا وفي كل ميدان تشمله الثقافة او يمت للفكر بصلة .

وهذه مرحلة أولية لا بد منها لكي يشعر المثقفون عن طريق الدعوة بانهم مدعوون للقيام بعمل جماعي ، وانهم مدعوون للخروج من العمل الفردي أو المحدود ، ولو لم يكن فرديا ، وانهم مدعوون كذلك للقيام بثورة هائلة تخرج بالثقافة وتخرج بالمثقفين عن القوقعة التي يعيشون فيها على هامش الحياة لا يؤثرون فيها الا من خلال ما تحتاجه الحياة من انتاجهم .

٢ — عقد مؤتمرات محلية من المثقفين تتناول الثورة المرجوة من كل جوانبها لتحدد الهدف وتقترح الاسلوب وتبحث آفاق الثورة وما يمكن أن تقوم به في ميدان تحرير الفكر والعقل من الحجر والاستغلال والعدوان . وفي ميدان تحرير الانسان من سيئات ما ينتجه الفكر .

٣ — عقد مؤتمرات قارية تعرض عليها نتائج المؤتمرات المحلية وتبحث بدورها آفاق الثورة الثقافية في القارة ، وستتسع هذه الافاق لتشمل القارة جميعها بما فيها من وجوه الاتفاق والاختلاف والحاجات التي تدعو الى الثورة الثقافية والجانب الذي يمس منها ثورة القارة .

٤ — عقد مؤتمر عالمي تتبلور فيه آفاق الثورة وتحدد مدلولاتها وتتقرر فيه طرق القيام بها .

وينبثق عن المؤتمر العالمي ميثاق يتعهد به جميع

المثقفين للعمل في اطار الاهداف التي يحددها وينظمها ويدعو اليها . ويكون الميثاق بمثابة دستور للثورة لا يقل عن ميثاق حقوق الانسان الذي صدر عقب الثورة الفرنسية ولا عن الدستور الاميركي الذي صدر بعد حرب الاستقلال ، ولا عن انجيل الشيوعية الذي اصبح دستور الشيوعيين بعد انتصار ثورة اكتوبر .

وتنطلق الثورة من الميثاق الثوري لتحرر الثقافة من استغلال السياسة والحرب والاستعمار ، ولتحرر المثقفين من التعبد للسياسيين والعسكريين والاستعماريين ، ولتحرر الفكر الانساني والانسانية عامة من اضطهاد ذوي المصالح ، ومن الامية والجهل والتخلف ، وينطلق المثقفون مسلحين بثورتهم ليؤكدوا وجودهم في كل دولة وكل قارة والعالم أجمع ، وليفرضوا على قادة العالم وعلى الشعوب احترام الميثاق حتى يصبح ميثاقا للانسانية جميعها لا ميثاقا لحزب او دولة او معسكر او كتلة .

ولنا أن نخشى على الثورة الثقافية هذا التحزب المذهبي ، الذي انتقل من عالم السياسة الى عالم المثقفين ، فأخذ يصنف المثقفين الى تقدميين وغير تقدميين ، يساريين ويمينيين . فمهما تكن لهذه التصنيفات من جذور نابعة عن الثقافة والفكر ، فان الذي نماها وغذاها في عالم المثقفين هو المذهبية السياسية والاقتصادية وهو تكتل العالم اقتصاديا ومذهبيا وسياسيا ، حتى أصبح لكل حزب مثقفوه ، ولكل مذهب مثقفوه ، وللكتلة الشرقية مثقفوها وللكتلة الغربية مثقفوها . وعلى غرار هذه التقسيمات المذهبية سيصبح لكتلة الصين مثقفوها ولكتلة الاتحاد السوفياتي مثقفوها ، كما ان لليمين المعتدل مثقفيه ولليمين المتطرف مثقفيه .

هذا شيء نخشاه ، ولذلك ندعو الى أن تكون الثورة الثقافية متحررة من هذه الحزبية الضيقة لتجميع المثقفين الذين يمكن أن ينسجموا مع الميثاق وليكونوا طليعة العالم الجديد المتحرر من كل الاخطاء التي ترسبت للمثقفين من عالم السياسة والحرب والمذهبية الضيقة .

هذه هي الثورة الايجابية التي يمكن أن تخلق للمثقفين هدفا ، وتوجد بينهم وحدة ، وتسلك بهم سبيل الثائرين لتحقيق الثورة الانسانية الكبرى المبنية على أسس ثقافية والمتحدية لثورات الشارع وصخب المراهقين وصيحات الاطفال . وهي السبيل أيضا لينتصر المثقفون على أنفسهم وليخرجوا من عقم الاجترار وسلبية الوحدة ، وليتنزلوا من الابراج العاجية التي ترضي طموح بعض المثقفين فتدفع بهم للتخلي عن المعركة لان الاطفال يخوضونها . وهي السبيل ايضا لتصحيح الاوضاع التي أصبحت نهبا لكل ناعق ، وهي السبيل لتوحيد العالم عن طريق الفكر حتى « لا يتوحد » في وحدات مشتتة عن طريق المصالح الاقتصادية التي قد تتطور مرة اخرى — وهي تتطور بالفعل — الى مصالح استعمارية .

الرباط — عبد الكريم غلاب

الفتاة والأغنية

وعندما تساءلت ما الشعر
أردت أن تقول انه ...
لعله ...
لعله الحياة ...
لعله الموت ،
وربما القافية العصماء والبيت
أردت أن تقول انه ..
لعله ...
أنت ... أجل أنت
وغيرتي الثاكل من صمتي
وكل خوف الارض اذ يأتي
لحظة أن أهم بالكلام
وانه الانسان اذ يعجز أن ينام
يعجز أن يبكي ، وأن يقول للحبيب : « انني ..
أود أن ... أريد أن ... »
فيعجز الكلام
وانه المعدم اذ يبحث عن هدية ،
شيء الى فتاته الحسناء
فلا يجد
شيئا سوى الغناء
لقلبه الحزين من عزاء

* * *

أردت أن تقول كل هذه الاشياء
لكنك ارتبكت
والاحرف الخرساء
تبعثرت هباء .
تبعثرت في الريح ، والفتاة
لم تدر ما تريد أن تقول
لم تسمع الغناء

براغ — صادق الصائغ